رسالة
حقيقة التوحيد

كتبها :
د. عبد الرحمن بن محمد بن موسى آل نصر
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه والمسلمين

الدار الأثرية

رسالة
حقيقة التوحيد

كتبها

د. عبدالرحمن بن محمد بن موسى آل نصر

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه والمسلمين

رسالة

حقيقة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم -رحمني الله وإياك- أنَّ حقيقة التوحيد حقيقةٌ شرعية قرآنية أبانها اللهُ في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ أيّما إبانة؛ فمن طلبها؛ وجدها.

وسبيل وُجدانها أن تتبيّن فيما ذكرَ اللهُ -سبحانه- الفرقانَ بين دين المرسلين -عليهم صلوات الله وسلامه- وما دَعوا إليه، وبين دينِ أعدائهم من المشركين وما كانوا عليه، وما به أقرّوا من التوحيد، وما امتنعوا عن الإقرار به، ومحلَّ الخصومةِ بين هؤلاء وهؤلاء.

فإذا علمتَ أن جِماع دين المشركين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ في خمسة أصول:

أولها: إقرارهم بأنه لا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا مدبر إلا الله كما قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ

مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]، وقال: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس : ٣١]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزُّخرُف:٩]، وقال: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦]، روى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٢) عن ابن عباس ﷺ: «مِن إِيمَانِهِم: إِذَا قِيلَ لَهُم: مَن خَلَقَ السَّمَاءَ، وَمَن خَلَقَ الأَرضَ، وَمَن خَلَقَ الجِبَالَ؟، قَالُوا: اللَّهُ، وَهُم مُشرِكُونَ».

ولا يمكن حمل جواباتهم هذه على غير الإقرار، فإن هذا هو مقتضى اللغة من إخباره تعالى عنهم: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، ولذلك يوبخّهم الله بعد إقرارهم هذا بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿فَأَنَّى تُسحَرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: أفلا تتقون اللهَ بإفراده

بالألوهية بعد إقراركم بتفرّده بالربوبية، وهي واردةٌ في سور مكيّة؛ ما كان المشركون في وقتِ تنزّلها مضطرين إلى المواربة أو مداهنةِ النبي ﷺ بإجابتهم على سؤاله بمن يخلق ويرزق ويدّبر بإثباتِ ذلك لله وحده دونَ أن يكونوا معتقدين لذلك.

وهذه الآيات بكثرتها واستفاضتها، وتنوّع أساليبها ترتقي من دلالة الظاهر إلى أن تكون من قبيل النَّص الذي لا يحتمل غيرَ مدلوله.

ثانيها: أنهم كانوا يعبدون اللهَ ويحجون له، ويعتمرون، ويتصدقون، ويعتقون الرّقيق، وينذرون له، ويصومون عاشوراء، ويُطعمون الحجيجَ، ويصلون الرَّحم معتقدين أنّ اللهَ هو أجلُّ معبوداتهم؛ فقد أخرج البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣) عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ، أَوْ عَتَاقَةٍ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ».

وأخرج البخاري (٢٠٣٢)، ومسلم (١٦٥٦) عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ، أَنَّ عُمَرَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ قَالَ : «فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ».

وأخرج البخاري (١٨٩٣) عَنْ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِصِيَامِهِ، حَتَّى فُرِضَ رَمَضَانُ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ شَاءَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَر».

وأخرج مسلم (١١٨٥) عن ابن عَبَّاسٍ ﷺ قال: كَانَ المُشرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ، قَالَ:فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيلَكُم قَد قَد»؛ فَيَقُولُونَ: إِلاَّ شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَملِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُم يَطُوفُونَ بِالبَيتِ.

ثالثها: أنهم كانوا يعبدون غير اللهِ مع اللهِ، وبه سُمّوا مشركين، وقد قال إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى

هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٨١]؛ فاستثنى ربَّه -تعالى- من معبودات المشركين، وأثنى عليه -سبحانه- بما يختص به دونها.

رابعها: أن شركهم ذاك إنما كان بقصد أن تقرّبهم معبوداتُهم إلى الله، وأن تشفع لهم عند الله كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣]، وقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨].

خامسها: أن منهم من كان يعبد الملائكةَ، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الجنّ، ومنهم من يعبد الشمسَ والقمر والكواكب، ومنهم من يعبد الأصنام والتماثيل تعظيمًا للمُمثَّلينَ بها من الملائكة والصالحين واعتقادًا منهم أن أرواحهم تَحُلّ في تلك الأصنام كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ

وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران:٨٠]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾[الأحقاف: ٦-٥]، والغفلة والمعاداة من صفات العقلاء لا الجمادات، وكفرُهم بعبادتهم إيّاهم دالٌّ على صلاحهم، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠-٢١]، والشعور من صفات العقلاء؛ فلما ماتوا ما عادوا يشعرون، وقال: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ:٤٠-٤١]، وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧]، في صحيح

البخاري (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠) عن عبدالله بن مسعود ﷺ: «كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناسًا من الجن؛ فأسلم الجنُّ، وتمسّك هؤلاء بدينهم»، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فُصِّلَت:٣٧]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم:١٩-٢٠]، وقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

فأتاهم رسول الله ﷺ يأمرهم بإفراد الله بالعبادة كلِّ العبادة، وينهاهم عن الشرك كلِّ الشرك أيّا كان المشرَك به كما قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١]، ولم يفرِّق بينهم ﷺ لا في أحكام الدنيا ولا الآخرة.

إذا علمتَ هؤلاء الخمسة، وعقلتَ حججَها؛ تبيَّن لك عشرةُ أمور:

أولها: أن إقرارهم بتوحيد الربوبية في الجملة، ومطلقَ عبادتهم لله لمّا لَبَسوها بالشرك، ولم يذعنوا لما جاء به رسول الله ﷺ من وجوب إفراد الله بجميع العبادات والكفر بكل معبود سواه لم يُدخلهم في حزب الموحدين ولا كانوا به معصومي الدم والمال، ولا ناجين في الآخرة، بل سمّاهم الله مشركين، وأمر رسولَه ﷺ بقتالهم؛ فقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ [التوبة:٥].

ثانيها: أن محلَّ الخصومة بينهم وبين رسول الله ﷺ كان في توحيد الألوهية؛ وهو توحيد العبادة لا في توحيد الربوبية؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ

مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦٓ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]؛ فأخبر الله بإقرارهم بأن الله هو خالق السموات والأرض، ثم أنكر عليهم في الآية نفسِها شركَهم بدعاء غيره، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣-٦٥]؛ فأخبر اللهُ في الموضع ذاتِه بإقرارهم بتفرد الله بتنزيل الماء وإحياء الأرض، وبأنهم يدعون غيرَه في حال الرَّخاء؛ وسماه شركًا.

و توحيد الألوهية: متعلَّقُه أفعال العبد، مشتق من الإله، والإله: على وزن فِعال بمعنى مفعول؛ ومعناه: المعبود، وتوحيد الربوبية: متعلَّقُه أفعال الله، مشتق من الرّب، والرب: أصله رابّ؛ اسم فاعل؛ ومعناه في اللغة: المالك السَّيد المصلح للشيء؛ فهما مفترقان اشتقاقًا، ومتعلَّقًا، ومعنى.

وأما استعمال الرب موضع الإله في بعض النصوص؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠]، وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وما يكون في القبر من سؤال الميت: من ربك؟؛ فوجهه: أن الرب والإله اسمان من أسماء الله، عَلَمان عليه؛ فكل منهما إذا استُعمل؛ دل على الله تبارك وتعالى، وإذا أُفرد أحدُهما دخل في معناه الآخر؛ فإذا وردا معًا في نص واحد؛ افترق معناهما، والله ينهانا عن الشرك كلِّه في الربوبية وفي الألوهية، وقد أنكر الشركَ في الألوهية في تلكم الآيات نفسها.

ثالثها: أن الإقرار بتوحيد الربوبية دون لازمه توحيد

العبادة لا يحقّق الإسلام ولا النجاة، ولذلك يحتج الله على المشركين بما أقروا من الربوبية على ما أنكروا من توحيد الألوهية؛ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١- ٢٢]، وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢]؛ فعُلم أن من أقرّ بمجرد الربوبية لا يكون مسلمًا موحِّدًا حتى يفرده بالألوهية، وأن الإتيان بتوحيد الربوبية في الجملة دون توحيد الألوهية حاصلٌ من أعداء رسول الله ﷺ الذين نزل فيهم القرآن.

رابعها: أنه ﷺ ورسل اللهِ مِن قبله إنما بُعثوا بالتوحيد المنجي توحيد العبادة، ومعناه: إفراد الله بالعبادة بخلع جميع المعبودات سواه كائنةً ما كانت في جميع العبادات كائنةً ما كانت كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ

أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢١ - ٢٢]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦] .

وأمر اللهُ رسوله ﷺ أن يبيّن دينَه لمخالفيه في قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٤-١٠٦]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾[غافر: ٦٦].

وأخرج مسلم (٨٣٢) عن عمرو بن عَبَسَةَ السُّلميّ رضي الله عنه قال: كُنتُ وَأَنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُم لَيسُوا عَلَى شَيءٍ وَهُم يَعبُدُونَ الأَوثَانَ،

فَسَمِعتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخبِرُ أَخبَارًا، فَقَعَدتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمتُ عَلَيهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُستَخفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيهِ قَومُهُ، فَتَلَطَّفتُ حَتَّى دَخَلتُ عَلَيهِ بِمَكَّةَ، فَقُلتُ لَهُ: مَا أَنتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»، فَقُلتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرسَلَنِي اللهُ»، فَقُلتُ: وَبِأَيِّ شَيءٍ أَرسَلَكَ، قَالَ: «أَرسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرحَامِ، وَكَسرِ الأَوثَانِ، وَأَن يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشرَكُ بِهِ شَيءٌ» .

خامسها: أن العبادة محضُ حق الله تعالى لا يصلح شيء منها لا لملَكٍ مقرَّب ولا لنبيٍ مرسَل، فضلًا عمن دونهما كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

وإذا ذكر الله في كتابه ما له وما لنبيه ﷺ في السّياق الواحد؛ فإنه يفرد نفسه جل وعلا بالعبادة؛ قال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾[النور: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التوبة: ٥٩]؛ فجعل تعالى الطاعة، والإيتاء له ولرسوله ﷺ، وجعل الخشية، والتقوى، والرغبة، والحسْب -وهو الكفاية- له وحده.

سادسها: أن العبادة لا تصح إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تصح إلا مع الطهارة، ولذلك قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾ [الكافرون: ٣]؛ فعبادةٌ يُتقرب فيها إلى الله مع شركٍ في سائر العبادات؛ لا يقبلها الله، ذلك أن الله تعالى لم يأمرهم بمجرد العبادة، بل أمرهم بإفراده بها؛ ليكون التوكلُ كلُّه لله؛ فلا يُعتمد بالقلب إلا على الله، والدعاء كلُّه لله؛ فلا يُدعى ميّتٌ ولا غائب ولا حي حاضر فيما لا يَقدر عليه إلا

الله، والنذر كله لله؛ فلا يُنذر لأحد سواه، والذبح كله لله؛ فلا يُذبح بقصدِ تعظيم غيره أو التقرب إلى غيره، ولتكون سائر العبادات لله وحده؛ فإن القول في بعض العبادات كالقول في البعض الآخر، وكلها من بابة واحدة: الدعاء، والذبح، والنذر، والصلاة، والركوع، والسجود.

وحقيقة العبادة: ما جمع كمالَ الخضوع، وكمال المحبة والتعظيم، وليس اعتقاد الاستقلال بالتأثير والنفع والضر في المعبود قيدًا فيها؛ فقد سمى الله مخالفي رسوله ﷺ عابدينَ لغير الله دون اعتقاد الربوبية في ما عبدوا كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣]، وقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨]، ولو كانوا يعتقدون فيها الربوبية لما جعلوها وسائط إلى الله؛ تشفع لهم عنده -بزعمهم- وتقرّبهم إلى الله تعالى الذي له الأمر.

والناظم لأفراد العبادة: قول من قال من أئمتنا -رحمهم الله-: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه

من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة؛ فالظاهرة: مثل: الصلاة، والحج، والذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، والباطنة: مثل: محبة الله، وخشيته، والتوكل عليه، والتوبة إليه.

ومردُّ ثبوت كون الشيء محبوبًا إلى الله مرضيًا لديه إلى خبر الله وخبر رسوله ﷺ الثابت عنه؛ فإن العبادات توقيفية، ويثبت ذلك بواحد من وجوه؛ منها:

التصريح بكونه عبادة، أو أمرُ الله أو رسوله ﷺ به، أو ترتيب الثواب على فعله، أو ترتيب العقاب على تركه، أو التصريح بأن جعله لغير الله شرك، أو التصريح بأن جعله لغير الله كفر، أو الثناء على فاعله، أو الأمر بإفراد الله به، أو النهي عن صرفه لغيره.

فمثال الأربعة الأُول: قول الله تعالى في عبادة الدعاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

ومثال التصريح بأن جعله لغير الله شرك: قوله في

الدعاء أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر:١٣-١٤].

ومثال التصريح بأن جعله لغير الله كفر: قوله في الدعاء أيضًا: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقوله: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ [الرعد: ١٤].

ومثال الثناء على أهله: قوله في عبادة الرغبة والرهبة والخشوع: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومثال الأمر بإفراد الله به: قوله في عبادة الذبح: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢

لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

ومثال النهي عن صرفه لغيره: قوله في عبادة الخوف: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]، وفيه أيضًا الأمر به مع تعليق الإيمان عليه.

سابعها: أن الشرك هو صرف شيء من العبادة لغير الله أيًا كان ذلك الغير، ولو لم يعتقد عابد غير الله في معبوده أنه إله أو رب؛ فإن الله تعالى إنما علّق وصف الشرك على جعل العبادة لغيره كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس:١٨]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة : ٣١]، وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فهذا ضابط الشرك؛ كلُّ ما دلّت النصوصُ على أنه عبادة؛ فصرفه لغير الله شرك، ولو لم يأت التصريح في النصوص بأن صرف ذلك الفرد من أفراد العبادة لغير الله شرك، مثال ذلك: عبادة النذر، لم يأت في النصوص تسمية صرفها لغير الله شركًا، ودل قول الله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة:٢٧٠] على أنها عبادة.

ثامنها: أن عبادة غير الله بقصد رجاء الزلفى إلى الله والشفاعةِ عند الله هو الذي أحلَّ أعداءه ﷺ دار البوار، وألزمهم اسم الشرك، وأن حجتهم يوم أن قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣]، وقالوا: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]؛ حجة داحضة؛ فقد كذّبهم الله في قولهم إنها تقرب إليه، وكفّرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزُّمَر:٣]، كما سمّى صنيعهم شركًا بقوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾ [يونس:١٨].

تدركُ مما قدّمتُ لك أن حصر الشرك الذي نهى عنه في كتبه، وعلى ألسنة رسله في الربوبية، أو في عبادة الأصنام،أو في عبادة غير الله بشرطِ اعتقاد الاستقلال بالنفع والضر في المعبود، أو في غير قصد الشفاعة والتقريب تحريفٌ لحقيقة التوحيد كما هو تحريف لحقيقة الشرك، ولَبس للحق بالباطل، وصدٌ عن دعوة المرسلين عليهم السلام، وتشويهٌ لمقصود بعثته ﷺ.

واللهُ تعالى لم يجعل بينه وبين خلقه وسائط في العبادة، لكن في تبليغ وحيه وأمره؛ فهذه الوسائط إنما تُطاع وتُتّبع ويُقتدى بها كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[النساء: ٦٤].

وأما الجاه؛ فلا ريب أن أعظم خلق الله جاهًا عند الله أنبياء الله عليهم السلام، ومن بعدهم صالحو المؤمنين؛ فقد قال الله في موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ٦٩﴾ [الأحزاب:٦٩]، وقال في عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران:٤٥]، ونبينا محمد ﷺ أعظم جاهًا منهما ومن سائر الأنبياء عليهم السلام أجمعين، ولكن الله لم يجعل جاههم أو

ذواتهم سببًا في إجابة دعاء الداعي فضلًا عن أن يكون جاههم مسوِّغًا لعبادتهم أو دعائهم من دون الله كما تقدم في قول الله: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾ [آل عمران:٨٠].

وأما الشفاعة؛ فهي مِلكٌ لله كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾ [الزُّمَر:٤٤]، ولا تحصل حتى يأذن الله للشافع أن يشفع، ويكون المشفوع له ممن رضي الله قوله وعمله؛ ولا يرضى إلا عن أهل التوحيد، وهذان هما شرطا الشفاعة كما قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم:٢٦]، وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وأخرج مسلم (١٩٩) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلِ نبيٍّ دعوةٌ

مستجابةٌ فتعجّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأُمتي يومَ القيامةِ؛ فهي نائلةٌ إن شاءَ اللهُ مَن ماتَ من أمتي لا يشركُ باللهِ شيئًا ».

وإذا كانت الشفاعة ملكًا لله وحده؛ فلا يَحِلّ أن تُطلب إلا منه؛ فيقول العبد: اللهم شفع فيّ نبيك ﷺ، اللهم إني أسألك شفاعة نبيك ﷺ.

أما في الآخرة؛ فيَسأل الخلقُ رسولَ الله ﷺ أن يشفع لهم عند ربه لفصل القضاء؛ لأنه حيٌّ حاضرٌ قادر على ذلك؛ فيجيبهم إلى ذلك وهو سيد الشفعاء ﷺ لكنْ لا يبدأ بالشفاعة أولًا، بل يستأذن على ربه؛ فيُؤذن له عليه؛ فإذا رآى ربَّه وقع له ساجدًا؛ فيدعه ما شاء الله أن يدعه، ثم يقال له: يَا مُحَمَّدُ، ارفَع رَأسَكَ، قُل تُسمَع، سَل تُعطَه، اشفَع تُشَفَّع، فيحمد ربَّه بمحامد علّمه إيّاها، ثم يشفع، ويحدّ له حدًّا فيُدخلهم الجنة كما ثبت في الصحيحين؛ فليست الشفاعة مطلقةً في حقه ﷺ؛ إنما أُعطي الشفاعةَ إعطاء مقيَّدًا، واللهُ الذي أعطاه الشفاعة؛ لم يأذن أن تُطلب إلا من المعطِي لا المعطَى ﷺ ولا غيره.

فعُلم بذلك أن كلَّ شفاعة تُرجى بسؤال غير الله، أو دون إذن الله، أو في غير أهل التوحيد؛ فهي منفيةٌ.

تاسعها: أن استكبارهم عن قول لا إله إلا الله الذي حكى الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات: ٣٥] فرعٌ عن علمهم بأنها تبطل تعلّقهم بكل من سوى الله، ولذلك ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٦]، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، وقال قوم هود عليه السلام له: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

عاشرها: أن الإله عندهم وهم أهل اللسان هو المعبود لا الخالق المالك المدبر؛ إذ لو كان معنى لا إله إلا الله لا خالق إلا الله؛ لما أُمروا بها؛ لأنهم مقرّون بذلك، ولما استكبروا عن قولها بعد إذ أُمروا بها، ولما اضطُروا لقتاله ﷺ وتعريضِ دنياهم وعزّهم في العرب للهَلَكة.

وبه تستبين عظيم الخطأ الذي يقع فيه من يفسّر كلمة التوحيد بغير نفي استحقاق العبادة عن غير الله وإثباته لله وحده، والحق أن معناها: لا معبود بحقٍ إلا الله، وإن شئتَ قلتَ: لا معبود حقٌ إلا الله.

كما تستبين أن كلمة التوحيد ليست مجرد كلمة تجري على اللسان، بل هي عهد والتزام؛ من نطق بها؛ لزمه العمل بها -ظاهرًا وباطنًا- عمرَه حتى يلقى اللهَ؛ فإن شرط استمرار حكمها ونيل موعود الله عليها: ألا يُحدِث صاحبُها ما يُخِلّ بموجَبها، كما هي يقين واعتقاد، ولذلك أَكذبَ اللهُ المنافقين حينما قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[المنافقون:١]؛ لأنهم لم يصدقوا في قولها، وقيَّد الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ النجاة بها في الآخرة بقيود ثقالٍ هي: العلم بمعناها، واليقين به، والإخلاص في قولها، والصدق فيه، ومحبة ما دلت عليه، والقبول له والرضا به بالقلب واللسان، والانقياد له ظاهرًا وباطنًا، وأوجبَ الله الشهادة بها، لا مطلق التلفظ بها، والشهادة

تلفظ عن علمٍ ويقين يتبعه عملٌ و ثبات.

وبذا يندفع ما قد يُستشكل من دخولِ بعض من يقولها النارَ دون خلود فيها كما تواترت بذلك الأحاديث؛ فإن هؤلاء إنما دخلوها -والعياذ بالله- مع قولهم لها؛ إما لأنهم لم يقولوها باليقين التام الذي يحملهم على اجتناب السيئات، أو قالوها ثم اكتسبوا سيئات أضعفتْ صدقهم ويقينهم بها؛ فرجحت بذلك سيئاتهم على حسناتهم.

تلك عشرةٌ كاملةٌ من الأصول المُحْكمة المشتملة على الحق المبين بدلائله في باب التوحيد؛ فما عارضها؛ فهو باطلٌ كما قال جلّ ثناؤه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

إذا عقلتَ ما أَبنتُ لك، واستشعرتَ عظيم حق الله وما يجب له من تعظيم وتقديس وتمجيد، وأدركتَ ما صار غالب الناس عليه من الجهل بهذا أو الإعراض عنه؛ أورثك ذلك شهودًا لعظيم منّة الله عليك واختصاصه لك، وخوفًا من أن تُسلب هذه النعمة.

وذلك يورثك: صدقَ الإقبال على الله واللّجَأ إليه بسؤال الثبات والمزيد من فضله، ودوامَ شكره، ومن شكر هذه النعمة: رعايتُها وتكميلها وصيانتُها عما يقدح بها، وتعاهد هذا العلم تعلمًا، وتعليمًا، وبثًا في الناس، والاعتصامَ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والاحتفالَ بما اشتملا عليه من براهين التوحيد استنباطًا، وتفهمًا، وتدبرًا، ومجانبة الإصغاء لدعاة الباطل من القبوريين؛ فإنّ حق التوحيد أن يُحرَس أكملَ حراسة، وأن تُرَاقب خطرات القلب لأجله، وأن تكرَّر دراسته المرة بعد المرة.

ومن حرسَه جهدَه معتصمًا بربه؛ رجي له كرامة الله بالخاتمة الحسنة؛ فإن مَن عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، و«مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، نسأل الله من فضله.

وإن خير ما يُشتغل به، وأجلّ ما تبذل فيه الأنفاس، وأنفع ما تُداوى به القلوب، وأرجى ما يُعدّه العبد للقاء ربه اشتغالُه بمعرفة حقه تعالى على وجه التفصيل،

وبيانه، والذب عنه، ومن عرف اللهَ؛ شهد تقصير نفسه، واستقلّ ما كان منه في سبيل ذلك.

واللهَ أسألُ أن يرزقنا التوحيد الخالص، وأن يختم لنا بأحبّ الأعمال إليه، وأن يتقبّلنا في الدعاة إلى توحيده السّعداء به؛ إنه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.